يرجـمـوننا بهـا الى أن مـات اكـثـرنا وبقي منا ثلاثة اشـخـاص: أنا واثنان[...]».

تجـري أحـداث هاتين المغـامـرتين في جـزيرة خـصـبـة (**الأوديـســة**، الفـصـل التـاسـع، الأبيـات من ١١٥ الى ١٥١) يصلهـا أوديس والسندباد بعد نجـاتهـمـا العجيبـة من آكلي اللوتس وجبل القردة، على التوالي. وتتكرّر الخلفيةُ البحرية في ثلاث وعــشــرين رواية من روايات [نُسَخ] ملحــمـــة **الأوديســـة** البالغة حوالي المئة والأربعين التي عاينها غلين (١٩٧١: ١٤٦). فـتـقـوم خـمسٌ من الروايات، هي الأوديسة، والسندباد، وسيف الملوك (وقصة هذا الأخير سنأتي على ذكرها بعد قليل) واثنتان أخريان جمعهما هاكمان (١٩٠٤: الفقرتان ٣٨ و ٣٩) بإيراد الحكاية على أنّها جزء من «قصة بطولية أو مغامرات مطوّلة لأبطال في البحر» (غلين، ١٩٧١: ١٤٦). ويواصل أوديس احتفاظه بمراكبه بعد أن ترك معظَمَ رجاله في جزيرة مجاورة ـ وهذا تفصيل ليس له، بالمناسبة، أيُّ نظير في استعراض غلين للحكايات الشعبية ـ وأما السندباد فتجرّده القرود من مراكبه.

يعيش السيكلوب في كـهف، وأمـا الزنجي آكلُ لحـوم البـشـر فـيـقطن في قـصـر أو قلعـة. ومن الروايات التي استعرضها غلين عشرٌ فقط تقع أحداثها في قلاع، مقابل إحدى وأربعين رواية تقع أحداثها في كهوف. وفي الأبيات ١٨٤ إلى ١٨٦ من الفصل التاسع من ملحمة **الأوديســة** يجـري وصف مسكن السيكلوب الذي هو الكهف وصـفـاً يذكّرنا بأحد الصروح:

حول الكهف قاعة عالية
بُنيتْ بحجارةٍ نُبشتْ [من باطن الأرض]،
وأحيطت بأشجارِ صنوبرٍ عاليةٍ وسنديان وفير الورق.

يعمل فـوليم (السـيكلوب) راعـيـاً، أمـا الزنجي آكلُ لحـوم البشر فلا يقوم، على ما يبدو، بأي عمل منتظم. غير أنَّ الحكاية قد تكون منطوية على أثرٍ ما للأغنام. ففي وصف القلعة استعملتُ في ترجمتي كلمتَيْ «حضير» و«حوش» بالمعنى المصري انطلاقاً من **قاموس اللهجة العربية المصرية** (بيروت ١٩٨٦) لهـايندز وبدوي، حيث لكل من كلمتي «الحضير» و«الحظير» معنى واحد، هو «بهو أو رواق محاط بعدد من الحجرات الصغيرة». إلا أن دوزي (Dozy) فـي **تكملة المعاجم العربية** (لايدن ١٨٨١) يشير إلى مناسبة وردتْ فيها كلمة حظير بمعنى «زريبة»، ولكنني أخفقت في الاهتداء إلى ما أشار إليه في سياق النص. ولأنَّ من العادة أن يُعتبر الماردُ راعياً فإنّ إمكانية أن تعني كلمتا الحظيرة والحوش «زريبة أغنام» تغدو أمراً ذا دلالة، وقد يكون هذا الأمرُ عبارةً عن إيراد إحدى الطبقات البديلة للقصة هنا...

وفيما كان السندباد وصحبه يغطون في النوم داخل القلعة، يُجبر أوديس رجالَه على انتظار عودة السيكلوب. والسيكلوب هذا بعين واحدة (وإن كان ذلك أمراً تفصيلياً لم يصرِّح به هوميروس) ويتمتع بالقدرة على الكلام، في حين أنّ الزنجي وحش أبكم بعـيـنين اثنتين. يخـتـــار السيكلوب ضحيَّتيْ وجبتهِ البشرية دون تمييز، في حين يعاين الزنجيُّ أفرادَ المجموعة واحداً بعد الآخر، ويقع اختيارُهُ على قبطان السفينة وهو الأكثر سمنةً بين أعضاء الفريق. والغولان، كلاهما، يبطحان ضحاياهما أرضاً قبل أن يبادر فوليم إلى التهام فريسته نيئةً، في حين يعمد الزنجي الى شيِّها على النار. ويشكّل التهامُ الضحايا نيئةً أوّلَ خروج رئيسي من قبل هوميروس على الروايات المألوفة للقصة كما أوردها پيج (١٩٥٥)؛ بل «الحق أنـه تصرُّفٌ اكثرُ همجيةً من تناولها مطبوخةً حسب المعايير الهوميرية» (شاين، ١٩٧٠: ٧٤). وفيما يلتهم فوليم الرجالَ مع الأحشاء واللحم ونخاع العظم، يجرّد الزنجيُّ العظامَ ويلقي بها بعيداً. وفي حين يستمتع فوليم باحتساء اللبن المخضوض لغسل وجبته المقرفة قبل أن يغط في النوم، يبقى الزنجيُّ جالساً لبعض الوقت كي يهضم عشاءه قبل أن يذهب الى النوم.

وصحيح أنّ الوحشين كليهما يخرجان في صباح اليوم التالي، ولكنّ السيكلوب يحرص على أن يتناول وجبةَ إفطارٍ مؤلفةً من لحم البشر، في حين يغادر الزنجيُّ المكان فقط. الفريقان، كلاهما، يعقدان اجتماعاً لدراسة مصيرهما: فيضع أوديس خطةً لسمل عين السيكلوب، في حين يغرق السندباد وصحبه التجار في بحر من البكاء والعويل. يحبس السـيكلوب أوديس ورجـاله في الكهف، في حين يبـقى السندباد والتجار أحراراً في مغادرة المكان علماً أنّ الضحايا لا تتمتع، في أيٍّ من الروايات التي أوردها فريزر، بحرية الخروج من مكان احتجازهم. صحيح أنّ السندباد وصحبه يتجولون في الجزيرة، إلا أنّهم لا يلبثون أن يعودوا إلى القلعة مع حلول الظلام، وقد استبدّ بهم الرعبُ الذي يتمخض عنه نوعٌ من الشلل الذهني. وكما يقول مولان (Molan) «فإنّ مؤامرة السندباد التي تستهدف قتلَ الوحش وسَمْلَ عينه ليست، على أية حال، مؤامرةً لها ما يسوّغها؛ فقلعة الوحش مفتوحة دائماً، كما أنّ السندباد متمتع بحرية صنع وتموين قاربٍ للهرب، وهو لا يعود لسمل عين الوحش إلا بعد أن ينجز مهمته هذه» [«السندباد البحري: تعليق على أخلاقيات العنف» في **مجلة الدراسات الآسيوية والشرقية** (JAOS)، العدد: ٩٨/٣ (١٩٨١)، ص: ٢٤٤]. غير أن هناك حقيقة قلما أتى المعلقون الذين تناولوا الحادثتين على ذكرها، ألا وهي أنّ أياً من السندباد أو أوديس لا يُقْدِم على قتل المخلوق. فالسيكلوب يستمتع بوجبته الثالثة، في حين يحتفل الزنجي بوجبته الثانية.

يسمل أوديس ورجاله عينَ فوليم في تلك الليلة ذاتها، أما السندباد وصحبه فلا يتشاورون لاجتراح الخطة إلا في اليوم الثالث من «احتجازهم»، حيث يتم اقتراحُ قتلِ الزنجي. غير أنّ السندباد يسارع، دونما حاجة أو ضرورة، إلى تقديم اقتراح مضاد يقضي بصنع مركب صغير، وبقتل المارد، وبالانطلاق من ثمّ إلى عرض البحر. أما السبب الداعي إلى انتظار المارد الذي يلتهم وجبته الثالثة فور عودته، بعد إنجاز عملية بناء المركب، فليس واضحاً. أضفْ إلى ذلك أنّ السندباد وجماعته لا يُجْهزون على المارد، بل يكتفون بالقضاء على بصره بواسطة سُفّودين من أدوات المطبخ المتوفرة بكثرة في القلعة. وفي خروج هوميروس الثاني على الحكاية التقليدية، يتخذ أوديس ورجاله، كما يقول پيج، قراراً يقضي باستعمال عصا من غصن الزيتون الأخضر الذي عثروا عليه في إحدى زوايا الكهف: «ولكنّ استبدال السفود بالعصا يُضعف القصة على الصعيد السُّردي كما يبدو، اذ يكسر تدفُّقَ الفعل من الفعل. أما على صعيد ملحمة **الأوديسة** كنصّ متكامل، فإنّ عملية الاستبدال هذه تشكل حالة واحدة من خمس حالات يكون فيها خشبُ الزيتون أو غصنُ الزيتون ذا علاقةٍ ما بخلاص أوديس». (شاين، ١٩٧٠: ٧٥)

يلتهم فوليم رجلين، وذلك للمرة الثالثة بعد عمله اليومي الشاق في رعي قطيع أغنامه. وقبل مشهد سمل العين، يُخبِّل أوديس السيكلوبَ بإعطائه نبيذاً شديدَ القوة يشلّ مَنْ يشربه حتى ولو كان عملاقاً (ويضمن أن يكون نومُه أعمق من ذاك الناجم عن مجرد الإفراط في الطعام)، ويُضلِّله بخدعةِ «لا أحد». وهذان الأمران (إسكار السيكلوب وتضليله) يشكلان، برأي پيج، وجهَي الاختلاف الثالث والرابع لدى هوميروس، وهما غير موجودين في «رحلة السندباد الثالثة»: فقصة النبيذ تسلط الضوء على نفاذ بصيرة أوديس وحكمته، فضلاً عن كونها متناغمة مع أطروحة «هدية الضيف»[1]، وهي، حسب ما يزعم الزاعمون، مأخوذة من «قصص أخرى تتناول قيام إنسان بدسّ السمّ لأحد الكائنات الشيطانية»[2]، مثل قصة السندباد وشيخ البحر في «الرحلة الخامسة».

أما الخديعة المتصلة بالاسم فهي منتشرة جداً في سائر القصص التي يتفوق فيها البطل «على الوحش عن طريق الإعلان عن اسم زائف يكون 'أنا نفسي' (I myself) عادةً»، (هوبيبك وهويكسترا، ١٩٩٠: ١٩)، كما تتيح لهوميروس فرصة تأكيد مكر أوديس والعزف على وتر «التشابه بين عبارتي mè tis التي تعني 'لا أحد' من جهة، وmetis التي تعني 'الذكاء' و'سعة الحيلة'» من جهة ثانية (شاين، ١٩٧٠: ٧٩). ويتم دفع قصة الخديعة هذه شوطاً إضافياً لدى إضافة حدث قدوم المردة الآخرين، استجابةً لصرخات الاستغاثة التي يطلقها فوليم.

وتبلغ الحكاية التقليدية ذروتها في الأبيات من ٤١٥ إلى ٤٧٢ من الفصل التاسع من ملحمة **الأوديسة**، وهي الأبيات التي تصف حادثة الهروب والنجاة: فأما أوديس فيتشبّث بأسفل بطن أحد الخراف، وأمّا رجاله فيُربطون إلى عدد آخر من الخراف[3]؛ وهذا أمر غير موجود في «الرحلة الثالثة» حيث ينطلق المارد ليعود بمن يتضح أنّها أمه، وهي أبشع بما لا يقاس من الزنجي آكلِ لحوم البشر. وهذه الصورة في الحكاية العربية تذكّرنا بقوم الليستريغون الوارد ذكرهم في الأبيات من ٨٠ إلى ١٣٢ في الفصل العاشر من ملحمة **الأوديسة**، حيث تلتقي زوجُ ملك الليستريغون آنتفاتيس برُسُل أوديس: «أما بالنسبة إلى الملكة فإنّه ليس ثمة امرأةٌ أقبح وأبشع وُصِفَتْ وصفاً أشدّ اختصاراً [ممّا هو عليه وصف **الأوديسة**]. إنّها لا يمكن أن تُنْسَى، غير انّ كل ما يقال عنها [في **الأوديسة**] هو أنّها كانت بطول الجبل ومثيرة لاشمئزازهم» (پيج، ١٩٥٥: ٣٠).

يلوذ البطلان، كلاهما، بالبحر طلباً للنجاة. ويقوم الزنجيّ آكلُ لحوم البشر وأمه بتعقب القارب في الماء ويمطرانه بالصخور، مُجهزيْن على جميع من فيه عدا السندباد واثنين آخرين؛ وأما قوم الليستريغون فيُغرقون أسطول أوديس كله عدا مركب القيادة الذي كان راسياً خارج المرفأ. ورواية هوميروس أكثر تفصيلاً ومدعومةٌ باللعنة التي هي وجه الاختلاف الخامس لدى پيج. يرشق فوليم المركبَ بصخرة كبيرةٍ تُحدث مداً يعيد المركب إلى الوراء. وبعد وصول أوديس ورجاله إلى برّ الأمان يبادر أوديس إلى استفزاز فوليم إذ يخبره باسمه، ويحاول فوليم إغواءهم بالعودة إلى الشاطئ عن طريق تقديم الهدايا. وكما يلاحظ شاين (١٩٧٠: ٨١) فإنّ «حكاية تدور حول خاتم هي الخاتمة المألوفة للقصة. فهذا الخاتم يقدمه العملاق بعد أن يكون البطل قد فرّ من الكهف؛ وما إنْ يقوم البطل بإدخال إصبعه في الخاتم، حتى يصرخ الخاتمُ معلناً عن مكان وجوده. يتعذر على البطل خلع الخاتم، ولا يستطيع النجاة من قبضة العملاق إلا بقطع إصبعه». إنّ خاتمة السيكلوبيا تربطها بـ «إحدى الموضوعات الرئيسية في **الأوديسة**... وهي موضوعة ضرورة استقبال الغرباء والضيوف بالترحاب والهدايا» (شاين، ١٩٧٠: ٨١) وحاجة أوديس الى تثبيت (أو إعادة تثبيت) هويته. فلعنة فوليم لا تستطيع في الحقيقة أن تبلغ المدى الأقصى من تأثيرها إلا «بعد تقديم

---

١ ـ انظر پودليتشكي (Podlecki) ١٩٦١.

٢ ـ هوبيبك وهويكسترا ١٩٩٠: ٣٢، حيث يشار الى ك. مولي: **الأوديسة والأرغونوتيكا**، أوترخت، ص: ٧١ ـ ٧٣.

٣ ـ انظر غلين، ١٩٧١: ١٦٧ ـ ١٦٩. وإنّ ارتداء الفرو هو الشكل العام لأسلوب النجاة.

الهوية الكاملة للضحية: الاسم، واسم الأب، والبلد» (هويبيك وهويكسترا، ١٩٩٠: ٤٠).

إنّ أية مقارنة تفصيلية بين هاتين القصتين لَتُشير الى أنّ الرواية العربية ليست مقتبسةً عن نظيرتها الإغريقية: فتعديلات دينيس پيج الهامة الخمسة للرواية الهوميرية غير موجودة في الرواية العربية. ومثل هذا الاستنتاج يظل مُقْنِعاً حين يُنظر إليه بالارتباط مع جملة التباينات الطفيفة بين الحكايتين. فلو كانت الرواية الأولى، كما زعم معظم المستعربين، نسخةً طبقَ الأصل عن الثانية، لبقي فيها بالضرورة أثرٌ مّا، وإن كان ضئيلاً، لجملة التعديلات الهوميرية الخمسة، بشكل مشوه ربما، أو بإطناب واضح على أية حال. لكنّ قصة «الرحلة الثالثة»، تبدو، بدلاً من ذلك، متناغمة مع السمات الرئيسية لقصة سمل عين العملاق الآكل لحوم البشر المبكر، أكثر من تناغمها مع حكاية السيكلوب. أضفْ إلى ذلك أنّ الفروق إنّما هي تباينات لا يمكن حصرُ تفسيرها «بتشويه الرواة العرب» (مولان، ١٩٧٨: ٢٤٠)، ولا بتعدد الأصول، ولا حتى بجملة التعديلات التي أدخلها كالام بناءً على نظريات غريماس الخاصة بعلم السرد القصصي.

من الواضح، إذن، أنّ الروايتين العربية والإغريقية كلتيهما مقتبستان من مصدر واحد أو من مصادر مشتركة. فالبطلان، كلاهما، ليسا وحيدين؛ والمغامرتان، كلتاهما، تقعان في جزيرتين؛ والغولان، كلاهما، يستمتعان بولائم ثلاث من اللحم البشري؛ والغولان كلاهما يبطحان ضحاياهما أرضاً؛ والروايتان لا تنطويان على أية إشارة واضحة الى الخاتم الناطق؛ كما أنّ القصتين تلتقيان على صعيد التفصيل غير العادي المتعلق برشق الأسرى الفارين بالصخور. على أن الرواية العربية، من هذه الناحية نفسها، نجدها أكثر توافقاً مع خاتمة قصة المجابهة مع قوم الليستريغون (وهي الخاتمة التي يُشتبه عموماً بأن تكون إحدى سمات حكايات الأرغونوتيكا [Argonautika] السابقة على **الأوديسة**، الأمر الذي يجعلها ذات أصول شرقية)[١] مما هي مع السيكلوبيا.

وماذا عن السيف؟ لم تسهم الدراسة السابقة لطبيعة العلاقة بين السندباد وأوديس بما يُعين سعينا إلى كشف اللغز المحيِّر الذي يغلِّف السيف الذي فتك بالعملاق. غير أنّ علينا، قبل الوصول إلى السيف، أن نعاين مسألة محيِّرةً أخرى، وتتعلق بتاجر آخر بائسٍ ساقه حظُّه العاثر إلى ملاقاة أحد الرعاة المتوحشين.

يُنسب كتاب **عجائب الهند** الى الناخوذة (أي القبطان البحري) بُزُرْك بن شهريار الرامهُرْمُزي الذي عاش في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. وتوحي ثماني عشرة من الحكايات المئة والست والثلاثين الواردة في الكتاب بحدوثها في عهد الخليفة المقتدر الذي دام حكمه من عام ٩٠٨ إلى عام ٩٣٢ الميلاديين. وبين الحكايات التي تحتوي موادَّ يمكن تحديدُ تاريخها، ثلاثٌ وقعتْ أحداثها بعد خلافة المقتدر؛ وقد كانت الأخيرة في سنة ٣٤٢ هـ/٩٥٣م.[٢]. والمرجَّح هو أن بُزُرْك (Buzurg) عاش في ميناء سيراف على الساحل الشمالي للخليج الفارسي وانطلق في مغامراته من هناك.

و**عجائب الهند** كتاب متمعِّج مشتَّت كُتِبَ بأسلوبٍ عربي طبيعي مفعم بالحياة، خالٍ من الحذلقة والادّعاءات التكلّف الأسلوبي، وإنْ لم يكن خالياً من بعض العيِّنات البديعة من فنّ الحكواتي. والحكايات هي، عموماً، «قصص طويلة»، سرودٌ بحارةٍ حقيقيةٌ، تجمع بين الواقعي والمألوف والغرائبي [الفانتاستيكي] والعبثي المنافي للعقل. وعبارة «الهند» الواردة في العنوان تعني، على ما يبدو، المحيطَ الهندي[٣]، إذ إنّ خلفيات القصص الجغرافية تمتد من الزنج والواقواق في شرق إفريقيا إلى فيتنام وكمبوديا، بل وتشمل الصين أيضاً[٤]، مع بقاء الممر المائي الرئيسي متمثلاً بالمحيط الهندي. أما كلمة «عجائب» في عنوان الكتاب فـ «تعني الوصف الدقيق للأشياء الغريبة (exotic) من جهة، والتصوير البسيط لما هو خرافي وخيالي بحت من جهة ثانية» (جيرهاردت، ١٩٦٣: ٢٣٨).

قبيل نهاية مخطوطة الكتاب الوحيدة المحفوظة في أياصوفيا باستنابول تحت رقم مخ: (٣٣٠٦) تَرِد القصة التالية:

«وسمعتُ مَنْ حكى أنّ رجلاً من أهل البصرة كان ينزل في وسط سكة قريش، خرج من البصرة قبل الزابج أو ما قاربه[...] فتخلص ووقع إلى جزيرة وقال: 'فصعدتُ تلك الجزيرة وتعلقتُ بشجرة كبيرة فواريتُ

---

١ ـ د. پيج: **القصص الشعبية في أوديسة هوميروس**، كامبريدج ١٩٧٢، ص: ٣٢ ـ ٣٩.

٢ ـ انظر ج.و. فوك (J. W. Fück) «بزرك بن شهريار»، **الموسوعة الاسلامية** ط ٢/١، ص: ١٣٥٨ و ج. فريمان ـ غرنفيل، **عجائب الهند**، ١٩٨١، الصفحات ٧ و ١٧ و ١٨ من المقدمة.

٣ ـ انظر جيفري (Jeffery) **المفردات الأجنبية في القرآن**، بارودا ١٩٣٨، ص: ١٨ ـ ١٩، للاطلاع على مناقشة معنى كلمة «هند».

٤ ـ من المحتمل أن تكون التجارة مع الصين قد توقفت بعد ذبح عدد كبير من التجار الأجانب في الصين عام ٨٧٨ م؛ انظر غيرهاردت، ١٩٦٣: ٢٤١ ـ ٢٤٢ وفريمان ـ غرينفيل ١٩٨١: ٢٥ (المقدمة).

شخصي بين أوراقها وبتُّ ليلتي. فلما أصبحتُ رأيتُ غنماً قد أقبلتْ نحو مائتي رأس في قَدْر العجاجيل، يسوقها رجل لم أر مثله، عظيم الخلقة، طويل عريض بشع المنظر، ومعه عصاة يسوق بها الغنم. فقعد على ساحل البحر ساعة[...] ثم عمد إلى شاة فقبض رِجْلها وأخذ ضرعها في فيه ومصّه إلى أن شرب ما فيه، ثم فعل ذلك بعدة من الغنم، ثم استلقى في ظل شجرة.

ففي تأمله الشجرةَ وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها، فأخذ حجراً ثقيلاً وحذف الطائر، فلم يكذب، فسقط الطائر بين أغصان الشجرة بالقرب مني، فأومى إليّ بيده أن أنزل، فلخوفي منه بادرتُ وأنا ضعيف ميت خوفاً وجوعاً. وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض، فقدّرتُ أنّ وزن الطائر نحو مائة رطل، ثم نتف ريشه وهو حيّ يضطرب. فلمّا نَتَفه أخذ حجراً قدر عشرين رطلاً فضرب رأسه وتركه حتى مات ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه. ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع حتى أتى عليه، ولم يُبقِ إلا عظامه. فلما اصفرّت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة فأفزعني. فاجتمعت الغنمُ إلى موضع واحد، وأوردهم خليجاً في الجزيرة فيه ماء عذب فسقاهم وشرب وشربتُ وقد أيقنتُ بالموت. ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعاً قد علّمه[1] بين الأشجار وحوله الخشب طولاً وعرضاً وله شبه باب. ودخلتِ الغنمُ ودخلتُ معها، وإذا في وسط ذلك الموضع شجرة مثل شجرة الغزالة في ارتفاع نحو عشرين ذراعاً على خشب وثيق. والغزالة شبه بالبيت. فما عمل شيئاً دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها فدقّ رأسها بحجر. ثم أجّج ناراً وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار. فأكل كلّ ما في جوف الشاة نيّاً، ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدة كبيرة، ثم أخذ شاة من أكبر الغنم فقبض بيديه على وسطها فسخمها وهي تصيح، ثم أخذ أخرى ففعل بها مثل ذلك، ثم صعد فأخذ شيئاً كان يشربه ثم نام، فجعل يغط كما يغط الثور. فلما انتصف الليل جعلت أدبّ قليلاً قليلاً إلى موضع النار وتتبعتُ ما بقي من اللحم فأكلتُ ما يمسك رمقي وخفتُ أن تنفر الغنم فينتبه فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة وبقيتُ مطروحاً إلى الغد.

فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم وهو يوحي إليّ بكلام لا أفهمه فأتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم عليّ. وقد صار عليّ شَعْرٌ عظيم، وأظنه لما رآني على الصورة عافتني نفسُهُ وكان ذلك سببَ تأخير أكلي. ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام يفعل كلّ يوم مثل ما فعل قبله، ولا يمضي يوم إلا ويصطاد فيه الطير والطيرين، فإنْ حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئاً من الغنم، وإن اقتصرت الطيورُ أكَلَ شاةً. وصرتُ أعاونه في وقيدِ النار وجمعِ الحطب وأخدمه وأدبّر الحيلة لنفسي إلى أن مضى لي عنده شهرين وصَلُحَ جسمي ورأيت في وجهه آثار السرور وفهمتُ أنه عزم على أكلي. وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمر ينقعه في الماء ثم يصفّيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل[...]. فلما كان في ليلة من الليالي صبرتُ حتى سكر ونام فقمتُ وتعلقتُ بشجرة ودلّيتُ غصناً من أغصانها الى الأرض ومضيتُ على وجهي أطلب صحراء قد كنت أشرفت عليها من تلك الشجرة، فلم أزل أمشي إلى الصباح...».

ليست هذه الحكاية إلا حلقةً من سلسلة المصائب والأهوال التي حلّتْ بالتاجر البصري. ومنذ البداية، ثمة، «نبرة صدق» تثير قدراً كبيراً من الريبة؛ فهناك عبارة تقول «كان [الرجل] ينزل في وسط سكة قريش»؛ وتدعي القصة أنّها حقيقية، وتُروى بروح واقعية مرهفة. ولكنّ النقص في المخطوطة (الذي لم أتمكن من تحديد مداه) يثير قدراً كبيراً من الإحباط والخيبة. فنحن نعرف أن التاجر متوجه الى جزيرة الزابج التي هي جاوا، وأنّه وحيد مثل معظم نظرائه في قصص التراث الشعبي الأخرى، وأنّه ينجو من هذا الراعي الغول ويتعلق في رحلته بساق طائر كبير كما فعل السندباد مع طائر «الرُّخ» في رحلته الثانية. وبعد ذلك يلتقي بتجار آخرين كانوا قد أبحروا من الزابج (جاوا) أو الصنف (جنوب غرب فيتنام) ولكنّهم كانوا في ذلك الوقت قد تعرضوا لنوع من العجز جراء وقوعهم أسرى قبيلةٍ من أكلة لحوم البشر الذين يختارون ضحاياهم بالقرعة[2]. وهؤلاء الوحوش كانوا يدهنون ضحاياهم بالسمن ويشوونهم في الشمس. ومن اللافت أنّهم متطورون في التصرف بلحم الضحايا: فبعضه يستعملونه في اليخنة، وبعضه يأكلونه «نيّاً مملوحاً». غير أنّ هذا لا يمكن استخدامه دليلاً مؤيِّداً لأشكال خروج هوميروس على الحكاية التقليدية كما أوردها پيج، لأنّ من عادة الناس في بعض أنحاء العالم الإسلامي أَكْلَ الأحشاء نيئةً باعتبارها وجبةً شهيةً جداً. ويشرب أكلةُ لحوم البشر هؤلاء، مثلهم مثل الغول، الخمرَ حتى الثمالة فيغطّون في النوم. ومن الصعب أن نحدد ما إذا كان هذا الإفراطُ في الشرب عائداً الى تحريم الإسلام للخمر أم أنه عرْفٌ «تقليديٌّ» جرى تعديله بما ينسجم مع الثقافة الإسلامية. غير أنّ من شأن ذلك أن يشي بأن هوميروس أبدى في **الأوديسة** براعةً فائقة حين قام بتعديل قصة إسكارِ الوحشِ ذاتِه بما يتفق مع قيام أوديس بإسكار فوليم وتنفيذِهِ اللاحق لخدعته الاسمية ذات الأهمية البالغة.

يقوم الأسرى المسلمون بحزّ رقاب المتوحشين المتعتعين بالسكر، ثم يلوذون بالفرار من الجزيرة على متن قارب محطّم يعثرون عليه على الشاطئ فيصلحونه، ليعودوا به إلى وطنهم. وخلافاً للسندباد الذي لا يعود إلى وطنه إلا في حالة من الازدهار والغنى، فإنّ التاجر البصري، وبعد غيابٍ دام أربعين عاماً، يقضي نحبه دون أن يتمكن من استعادة ما خسر من ثروته باستثناء جزء يسير.

من الواضح أننا هنا بصدد مسلسلٍ شبيهٍ بمسلسل

---

١ ـ قارناً عَمِلَ بدلاً من عَلَّمَ («وضع علامته عليه») الواردة في النص.

٢ ـ برأي پيج (١٩٥٥: ١٢ ـ ١٣) فإنّ هذا هو مَنْشأ سحب القرعة في الأبيات ٣١٦ ـ ٣٥٥ من الفصل التاسع في **الأوديسة**.